

المؤمن طالب الهداية دائما

مع طرف من أسرار قوله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ صدق الله العظيم

أخى : إن مما علمت إلى هذه اللحظة من الوقت ، وفوق كل ذى علم عليم ، أن الهادى بحق هو الله وحده ، ولذلك لا نهاية للهداية ، فالمؤمن الحق ينتقل من هداية إلى هداية ، ويرحل بهداية إلى هداية إلى أن يلقى ربه وهو فى الطريق إليه : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وفى الحديث القدسى : كلکم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، أو كما قال . وعلى هذا الأساس من العلم أقول لأخى وسيدى إن التعريف بالهداية الصحيحة هو أقصى ما يكون من نفع الأخ لأخيه ، والله هو الهادى إلى الصراط المستقيم . فانظر أخى وسيدى إلى وظيفة الطبيب ورسالته بالنسبة للمريض الذى يلجأ إليه مؤمنا به مستسلما له صادقا فيما يعرض عليه من أمراضه وأسقامه وأحواله ، راضيا بتوجيهاته وإرشاداته ، عاملا بها على قدر استعداداته وطاقاته . فكذلك الشأن أخى وسيدى بين الأخ وأخيه إذا تعارفا على سلوك الطريق إلى الله والاهتداء بهديه . وقد تكرر فى القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال ، فيقوم القلب والجوارح بأعمال تقتضى الهداية اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره ، وكذلك الضلال ، فأعمال البر تثمر الهدى ، وكلما ازداد منها ازداد هدى ، وأعمال الفجور بالضد ؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى يحب أعمال البر فيجازى عليها بالهدى والفلاح ، ويغض أعمال الفجور ويجازى عليها بالضلال والشقاء ، وأيضا فإنه يحب البر ويحب أعمال البررة ، فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر ،

ويغض الفجور وأهله فيبعد قلوبهم منه بحسب ما قاموا وما اتصفوا به من الفجور ، فمن الأصل الأول قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ يَهْدِىْ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وهذا يتضمن أمرين : أحدهما : أنه يهدى من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب ، فإن الناس على اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم أن الله سبحانه يكره الظلم والفواحش والفساد فى الأرض ، ويمقت فاعل ذلك ، ويحب العدل والإحسان والجود والصدق والإصلاح فى الأرض ، ويجب فاعل ذلك ، فلما نزل الكتاب أثاب سبحانه أهل البر بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهم على برهم وطاعتهم ، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم بأن حال بينهم وبين الاهتداء به . الأمر الثانى : أن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملا ، وقبل أوامره وصدق بأخباره كان سببا ذلك هداية أخرى تحصل له على التفصيل ؛ فإن الهداية لا نهاية لها ، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ ، ففوق هدايته هداية أخرى ، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير نهاية ، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى فهو فى مزيد من الهداية ما دام فى مزيد من التقوى ، وكلما قوت حظا من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه ، فكلما اتقى ازداد هدى ، وكلما اهتدى ازداد تقوى ، قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ سَيَذَكِّرُ مَن يَحْشَى ﴾ وقال : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ فهداهم أولا إلى الإيمان ، فلما آمنوا هداهم بالإيمان هداية بعد هداية ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذى يفرقون به بين الحق والباطل . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ . وللعلم أذكر لأخى وسيدى أن مبنى الدين على قاعدتين : الذكر والشكر . قال تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ وقال النبى ﷺ لمعاذ : والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة : « اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر

القلبي واللساني ، فذكر اليوم باللسان مع الصدق والإخلاص ينتهي بالذاكر إلى الذكر القلبي . وذكره سبحانه يتضمن ذكر أسمائه وصفاته ، وذكر أمره ونهيه ، وذكره بكلامه ، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به ، وبصفات كماله ونعوت جلاله ، والثناء عليه بأنواع المدح والثناء ، وذلك لا يتم إلا بتوحيده ، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه . وأما الشكر فهو القيام بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهرا وباطنا . وهذان الأمران هما جماع الدين ، فذكره مستلزم لمعرفته ، وشكره متضمن لطاعته ، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض ، ووضع لأجلهما الثواب والعقاب ، وأنزلت الكتب وأرسل الرسل ، وهو الحق الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما ، وضده هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه ، وهو ظن أعدائه به . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِإِلَافٍ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يُذكر سبحانه ويشكر ، يُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يكفر .. وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره ، شاكر لمن شكره ، فذكره سبب لذكره ، وشكره سبب لزيادة فضله ، فالذكر للقلب واللسان ، والشكر للقلب محبة وإنابة ، واللسان ثناء وحمدا ، وللجوارح طاعة وخدمة . فانظر أخى وتدبر ، ولا تشغل بالك بضعفك وعجزك ، وقصورك وتقصيرك فإنك على أى حال ضعيف ، وعلى أى صورة مقصر ، وعلى أى وضع عاجز مفتقر إلى ربك وخالقك ، فذكره بلسانك كثيرا وإن لم يتواطأ مع قلبك ، والله يتولاك ويرعاك .. فالحمد لله والشكر له !

وللعلم أذكر لأخى وسيدى أن الله أخبر عن آياته المشهودة العيانية لينتفع بها أهل الصبر والشكر كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية لينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة ، ومن كان قصده اتباع رضوانه ، قال تعالى : ﴿ طَهُرْ مَا

أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿١﴾ وقال في بيان الساعة : ﴿٢﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ﴿٣﴾ وأما من لم يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات النبية ولا القرآنية . أعاذنا الله وإياكم من الكفر والضلال ، ومن شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ولا يفوتني في هذا الصدد أن أقول لأخي : إن الإيمان يبنى على الصبر والشكر ، فنصفه صبر ونصفه شكر ، فإن رأس الشكر التوحيد ، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى ، فإذا كان مشركا متبعا هواه لم يكن صابرا ولا شكورا فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه إيمانا . فاعلم أخي وسيدى أن الهدى والرحمة وتوابعهما من الفضل والإنعام كله من صفة العطاء ، والإضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع ، وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه ، وذلك كله صادر عن حكمة بالغة . قال تعالى : ﴿٤﴾ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

في هذه الآية الكريمة عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد ، فإذا علم العبد أن المكروه قد يأتي بالحبيب ، والمحبوب قد يأتي بالمكروه لم يأمن من أن تواتيه المضرة من جانب المسرة ، ولم يئس أن تأتیه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب ؛ فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد ، حيث أوجب له أمورا كثيرة وبينها ومنها : أنه لا أنفع له من امتثال الأوامر وإن شق عليه في الابتداء لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع ، وكذلك لا شيء أضر عليها من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه لأن عواقبه كلها آلام وأحزان ، وشرور ومصائب ، وخاصة المنطق العقلي يقول : تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير ، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم الطويل والشر العظيم . ولكن نظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها ، والعامل الكيس دائما ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها فيرى ما وراء الستور من الغايات المحمودة والمذمومة ، فيرى المناهى كطعام لذيق قد خلط فيه سم قاتل ، فكلما دعت له لذته إلى تناولها نهاه ما فيه من السم ، ويرى الأوامر كدواء كربه المذاق لكنه مفض إلى العافية والشفاء ،

وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول ، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم ، وإذا قوى يقينه وصبره هانت عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة . ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم العواقب للأمور والرضا بما يختاره له لما يرجو فيه من حسن العاقبة . ومنها أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ، ولا يسأله ما ليس له به علم ، فلعل مضرتة وهلاكه فيه وهو لا يعلم فلا يختار على ربه شيئا ، بل يسأله حسن الاختيار له ، وأن يرضيه بما يختاره له ، فلا أنفع له من ذلك . ومنها أنه إذا تعرف إلى ربه ورضي بما يختاره له أمدّه فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر ، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه ، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه . ومنها أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات ، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي تصادفه وتعرض عليه لأنه يرى أنه لن يخرج عما قدره له خالقه ولأنه لو رضى باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به ، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم ، غير ملطوف به فيه ، لأنه مع اختياره لنفسه ، ولكن العبد إذا ما فوض الأمر لربه ناله العطف واللطف ، فيصير بين عطف الله ولطفه ، فعطفه يقيه ما يحذره ، ولطفه يهون عليه ما قدره ، إذا نفذ القدر في العبد فلا شيء أنفع للعبد من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحا كالميتة ، فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف . فانظر أخي وتدبر ، ودع عنك وساوس الشيطان وكيدته وخواطر النفس . والله المستعان . فاعلم أخي وسيدى أن من فكر في الآخرة وشرفها ودوامها ، وفي الدنيا وخستها وفنائها أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا ، وكلما فكر في قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد ، وبذل الوسع في اغتنام الوقت ، فالتخلف عن الكمالات إما من عدم البصيرة ، وإما من عدم العزيمة « فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » أو كما قال .. فاعلم أخي وسيدى أنه لا طريق للخلاص إلا بالرجوع إلى الله وحده .. تأمل في قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ جمع في هذا الدعاء بين

حقيقة التوحيد ، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة في التملق له ، والإقرار بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين ، والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته هو وفقره . ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ ... إنلج الآية الكريمة .. فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علما .. قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ ﴾ فالله سبحانه عنده كل شىء ، والشىء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ، وقد تضمنت الآية أن كل شىء عنده ، ومفاتيح تلك الخزائن بيده ، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه عبث وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ يفيد ويؤكد أن كل مراد إن لم يُرَدَّ لأجله ويتصل به فهو منقطع مضمحل ، فإنه ليس إليه المنتهى وليس المنتهى إلا إليه سبحانه حيث انتهت الأمور كلها إليه : انتهت إلى خلقه ومشيتته وعلمه وحكمته ، فهو غاية كل مطلوب ، وكل محبوب لا يُحِبُّ لأجله فمحبه عناء وعذاب ، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل ، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقى محجوب عن سعادته وفلاحه ، فاجتمع ما يراد منه كله فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ واجتمع ما يراد له كله فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ فليس وراءه سبحانه غاية تطلب ، وليس دونه غاية المنتهى .

فاعلم أخى وسيدى أن القلب لا يستقر ولا يسكن ولا يطمئن إلا بالوصول إليه ، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره ، وليس المراد لذاته إلا واحد ، إليه المنتهى ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين ، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين ، فمن كان انتهاء محبه ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه ، ومن كان انتهاء محبه ورغبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وسعادته أبد الآبدين .. هذا وقد علمت أخى أن العبد متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل ، فهو باستمرار محتاج بل مضطر إلى العون عند الأوامر ، وإلى اللطف عند النوازل ، فإن كمل القيام بالأوامر وباطنا ناله اللطف ظاهرا وباطنا . وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها ناله اللطف فى الظاهر وقل نصيبه من اللطف فى الباطن . فإن قلت

وما اللطف فى الباطن؟؟ قلت : هو ما يحصل للقلب عند التوازن من السكينة والطمأنينة ، وزوال القلق والاضطراب والجزع ، فيستخذى بين يدي سيده ذليلا مسكينا ناظرا إليه بقلبه ، ساكنا إليه بروحه وسره قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم ، وقد غيبه عن شهود ذلك البلاء معرفته بحسن اختياره له وأنه عبد محض ، يجرى عليه سيده أحكامه ، رضى أم سخط ، فإن رضى نال الرضا ، وإن سخط فحظه السخط ، فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة يزيد بزيادتها ، وينقص بنقصانها ، والله المستعان .

* * * *